سلوت ونشوء الأفلاج في عُمان

ج. س. ويلكنسون *

سَلوتُ اليوم، ليست أكثر من مستقَرٍّ حَضَري مهجور في ناحية وادي بهلا في المنحدَر البادئ بجبرين. بيد أنّ الواضحَ رغم اليباب السائد أنه كانت لهذا المستقرّ في ما مضى أهميةٌ من نوعٍ ما. أمّا إسم ذاك المكان فمرتبطٌ بالتاريخ الأسطوري لأصول نظام الأفلاج بعُمان. وتتكرر الحكاية مرتين: المرة الأولى باعتبار سلوت المكان الذي قاتل فيه العربُ بقيادة مالك بن فهم الفرس عندما وصلوا إلى أواسط عُمان، والمرة الثانية باعتباره الناحية التي نزل فيها سليمان بن داود نفسه عندما كان "شياطينه" يبنون نظام الأفلاج في عُمان!

تُشرذمُ الأساطير التاريخ، وهي بمثابة منظارٍ مكبِّرٍ لحقَبٍ سحيقةٍ من التاريخ في الوقت نفسه. وهي تميل لخلْق شخصيات أسطوريةٍ من حول أُخرى تاريخية، كما أنها تُشخصنُ الأحداث. بيد أنها في الوقت نفسه تحتفظ بعناصرٍ تسمحُ للمؤرِّخ بتمييز خيوطٍ لوقائع ممكنة؛ وبخاصةٍ عندما يمكن قراءتُها استناداً لتقاليد محلية. وربما كان شليمان Schliemann تبسيطياً في مقاربته لأسطورة هوميروس والتقاليد المحلية المتعلقة بموقع طروادة. لكنّ الذي يبقى أنه تمكّن من تحديد موقع المدينة، ففتح بذلك الطريق لعلم الآثار الإغريقي، الذي تعاطى مع التعقيدات الحقيقية للمكان وللتاريخ. فيكون على الباحث أن يقرن في ذهنه بين مصطلح "الأسطورة"، والعبارة التي تقول: "الأسطورة، التي ينبغي أنِ تُقرأ". وهناك أمرٌ بسيطٌ آخر. فلكل أسطورةٍ هدفٌ وغاية. لقد ظهرت باعتبارها رواية مركَّبة للتاريخ؛ وهذه بدورها ينبغي أخْذُها بالاعتبار عندما نُحاول لتمييز الحقائق من النسيج الأسطوري حول أصول الأفلاج في عُمان.

هجرة الأزد: تبدأ الحكايةُ بما يُعرف بتفرُّق الأزد وهجرتهم، نتيجة سيل العرم. وهو السيل الذي يُفترضُ أنه دمَّر سدَّ مأرب، ودفع الأزدَ للانتقال بعيداً عن مواطنهم الأصلية، وبمجموعاتٍ قبَليةٍ كبيرة نزلت أولاً بغرب الجزيرة العربية من الحجاز إلى السَراة، قبل أن ينتشروا ويتفرقوا من جديد. من جزء القصة هذا بالذات نتبيَّنُ الغرضَ من وراء الأسطورة. فهي تربط الأزد بمأرب، وهي العلاقةُ التي يُرادُ من ورائها تعليل الاسم العربي لعُمان؛ إذ هو اسمٌ أطلقه على البلاد الأزديون عندما نزلوا بها أخذاً من اسم أحد أودية مأرب بموطنهم الأصلي، وقد كان الاسمُ الفارسيُّ السابقُ لعُمان: مَزون. ومأرب كما هو معروفٌ هي مركزُ الحضارات اليمنية القديمة المُسمَّاة بالسبئية. وهذا الربط للأزد بالحضارات الجنوبية العربية القديمة، هو بحدّ ذاته تأكيدٌ لمكانتهم في وجه العرب الشماليين الصاعدين. والجزء التفصيلي والباقي أنّ الأزد من قحطان، ومن قحطان حمْير آخر الدول الكبرى اليمنية المرتبطة بمأرب. وقد انحفظ هذا التقليدُ النَسَبي والقبَلي القديم

من طريق الهمْداني(في الأجزاء الباقية من كتابه: الإكليل)، كما في شرح نشوان بن سعيد الحميري(573هـ/1178م) في ما بعد على "القصيدة الحميرية"، التي لها انتشارٌ في عُمان، والتي استخدمها حرفياً أحياناً بعضُ المؤلفين العُمانيين(مثل ابن زُريق). بيد أنّ المصدر الرئيسيَّ لأنساب القبائل اليمنية وتاريخها في عمان هو كتابُ الأنساب(لسَلمة بن مُسلم بن إبراهيم) العوتبي (أواخر القرن الخامس الهجري ومطالع السادس/الحادي عشر والثاني عشر للميلاد)(1). والعوتبي هو الذي كرَّر الأجزاء الأساسية من الحكاية التي نحن معنيون بها هنا.

مأرب: إنّ انفجار سدّ مأرب، والذي أفضى لهجرة الأزد، بحسب الحكاية، هو جمعٌ في الحقيقة لستّ مراتٍ من الخراب للسدّ في الخمسمائة سنة الأولى بعد الميلاد. وقد جمعت حكايةُ "تفرُّق الأزد" اجتياحات السيول للسدّ في مرةٍ واحدةٍ، وربطتها ربطاً غير منطقيٍ إذ قالت: إنه عندما وصل مالك بن فهم وقبيلُهُ إلى عُمان كانت البلاد تحت حُكْم دارا بن دارا بن بهمان. والواقعُ أنّ تتبُّع تاريخ الهجرات العربية شمالاً وجنوباً يشير إلى حدوثها قبل الإسلام بعدة مئاتٍ من السنين، وكذلك الغزو الساساني لجنوب الجزيرة. لكنْ لا الهجرة العربية، ولا الغزو يمكن أن يعودا لزمن دارا بن دارا!

لقد أقيم سدُّ مأرب لجمع مياه الوديان وبخاصةٍ مياه وادي أبرد الضخم(حوالي العشرة آلاف والأربعمائة كلم)، ثم مياه الأمطار وبعض الينابيع الأخرى. وتعودُ أصوله إلى حوالي العام 800ق.م، وقد ظلَّ عاملاً حتى القرن السادس الميلادي.

لكنّ الذي يبدو أنه مع توالي القرون عليه، برزت صعوباتٌ كثيرةٌ تتعلّق بموقعه وعوامل التعرية وموادّ البناء ومفاجآت السيول العنيفة، ولذلك كان لابُدَّ من تقويته دائماً، ورفع جدرانه، وترميم تشعثاته ثم في الحالات الاستثنائية الناجمة عن السيول العنيفة، كان لا بد من جمع قوةٍ عاملةٍ كبيرةٍ لإعادة البناء وسدّ الثغرات. وتذكر النصوص السبئية(النقوش على الصخور) أنه في العام 564 من التاريخ الحميري(ما بين 444 و454 للميلاد) قام شراحيل يعفُر ملك سبأ وريدان وحضرموت ويَمَنت مع عَرَبه من طودٍ وتهامة بترميم السدّ من القاع إلى أعلى الحيطان في الشتاء، وبمساعدة 14600 عامل و1200 فنّي(وهناك قائمةٌ في النقش بالتكاليف الناجمة عن ذلك)، وقد فعل الملك ذلك لأنّ السدَّ كان قد تشعّث في الخريف. لكنْ في الربيع(شهر أبريل) حدثت أضرارٌ أُخرى اضطرت الملك لاستقدام عشرين ألف عامل، ورفع حيطان السدّ بمقدار ستة أمتار. وتذكر مجموعة نقوشٍ أُخرى أنّ انفجاراً حدث بالسدّ عام 657م من التأريخ الحميري(ما بين 537 و 547م) في الوقت الذي ثارت فيه قبائل عربيةٌ ضد السلطة، وانصرف الأحباش والحميريون لإخماد الثورة. وتذكر النقوش أنه عندما كان الملك يرمِّم السدَّ بعد إخماد التمرد القبَلي، تلقّى رسائل من النجاشي والإمبراطور البيزنطي وبعثة دبلوماسية من فارس ومبعوثين آخرين من الحيرة ومن عند بني غسّان(2).

وتُظهرُ تلك النقوش ثلاثة أمور: الأول: أنّ القوة الحميرية كانت معتبرةً من الناحيتين

السياسية والجغرافية. وقد امتدت إلى عُمان في بعض الأحيان. فعندما أعاد أردشير بن بابك(226-241م) نشر النفوذ الإيراني في شرق الجزيرة العربية وجنوبها كان ملك عُمان اسمُهُ عمرو بن واقد الحميري(3). والثاني: أنَّ العرب كانوا هم رعايا تلك المملكة. والثالث: أن تشعُّثات السدّ تكررت كثيراً خلال القرون. والتشعُّثُ الأخير، الذي يمكن أن يكونَ قد قاد لهجرةٍ كبيرةٍ من حوله، حدث قبل أقلّ من قرنٍ على ظهور الإسلام. وفي ذلك الوقت كان العربُ قد استقروا بعُمان منذ زمنٍ طويلٍ، وتوصَّلوا لتسويةٍ مع الفُرس ونفوذهم هناك، والذين استمروا بالبلاد لحين مجيء الإسلام. وهكذا فإنّ قصة مالك بن فهمٍ تعصُرُ ألف عامٍ من التاريخ، ولصالح رجلٍ عاش هو نفسه بحسب تلك الرواية مائة وعشرين عاماً! ومالك ليس مهماً في تفسير استقرار العرب بعُمان فقط؛ بل هو مهمٌّ أيضاً في تحدُّرات الأنساب. ففي جداول ابن الكلبي(جمهرة النَسَب) المبكّرة يجري مزجُ الأزد مع قُضاعة من خلال هجرةٍ تنوخ. لكنْ رغم ذلك كلّه فإنني سأمضي قُدُماً في اعتبار قصة هجرة الأزد بقيادة مالك مهمة في الرؤية البعيدة للعرب الأولى أو العرب الأولين "Proto Arabs -". فهناك إشاراتٌ بالمصادر الكلاسيكية العربية إلى هؤلاء وفي نواحي من عُمان، من مثل طسْم وجديس وعاد والعمالقة، كما إلى الساميين الأوائل من مثل سام بن نوح وحفيده صُحار بن إرَم، وأعقاب قحطان الأوائل. والمؤلفون الكلاسيكيون من مثل بليني وسترابو وبطليموس وكتاب الأسفار في البحر الأريتري، كلٌّ هؤلاء يعتبرون الساباي(السبئيين؟) أحد عناصر ثلاثة على الساحل (العُماني)؛ في حين تقرن تقاليد محلية مكاناً بجُلفار بملكة سبأ أو بلقيس(4). وكل تلك الأقاصيص قابلة للنقاش. فهناك إشارةٌ أثريةٌ ذات أهمية في شاهد قبرٍ كشفته جرَّافةٌ على مقربةٍ من "طوي مليحة"، وقد رأيتُهُ عام 1970م (وأظنه ضاع الآن) ونسختُهُ بعناية. واستناداً إلى هذا الشاهد قال البروفسور بيستون شارحاً: "إنّ نقش الشارقة... هو الشاهد الأكثر أصالة على الدخول العربي الجنوبي إلى الساحل الشرقي. فمن جهة نوع الخطّ يبدو لي أنه يعود إلى القرن الخامس ق.م. تقريباً، أو بعد ذلك بقليل. والنقش واضحٌ ونصُّه: هذا شاهد قبر وقبر ذريات خادم الملوك(نفس وقبر ذريات فتى الملوك)(5). وقد دلّتني أبحاثي الخاصة على أنّ هذا النقش يعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد في أحسن تقدير. وهذا يدلُّ على وجودٍ عربي قديم ومتنامٍ في أجزاء من عُمان على الأقل. وربما كان هؤلاء، ومنذ ذلك الحين، في نزاعٍ مع الفرس. وهذا النزاع هو الذي تشير إليه القصةُ المنكمشة والمتركّزة حول مالك بن فهم.

هجرة مالك بن فهم: بعد هذه الملاحظات التمهيدية، دعونا نَعُدْ إلى قصة مالك بن فهمٍ كما تبدو عند العوتبي. يقول العوتبي: إنه نتيجة نزاعٍ قَبَلي، غادر مالك بن فهم مصحوباً بمجموعاتٍ قَبَليةٍ من قُضاعة السراة وتهامة وتقدم على طول أطراف جنوب الجزيرة العربية(وقد انفصلت المهرة عن مالك واستقرت بالشحْر)(6). وعندما وصل مالك إلى عُمان استقر مع مَنْ معه أولاً في النواحي الجنوبية- الشرقية، في جَعْلان وعلى الساحل حول منطقة قلهات. ويعني ذلك أنه أقام على الحدود الحَضَرية لعُمان آنذاك. لكنّ العرب ما لبثوا أن انتشروا على أطراف الصحراء بالجَوف(أواسط عُمان على الجهة الجنوبية من

الجبال)، حيث كان الساكنون هناك يعترفون بسلطة دارا ابنِ دارا بن بهمن. وقد جرت مفاوضاتٌ مع المرزُبان(والي كسرى) من أجل منحهم قطعةً من الأرض بتلك النواحي، في الوقت الذي كان فيه مالك قد حَضَر فلجاً في مَنح سُمّي "فلج مالك"(7). ووصلت إلى الفرس إمداداتٌ من صُحار، وجرى من جانب السكّان رفضُ طلب مالك للكلأ والماء، فنشبت معركةٌ حاسمةٌ في سَلوت بين الطرفين. وحسب الرواية فإنّ الفرس طلبوا الهدنة والسلام على أن يغادروا عُمان خلال عام. بيد أنهم عادوا فثبّتوا أقدامهم في صُحار، وبقي العربُ في الصحراء وعلى سفوح الجبال، في حين عاد مالك بن فهم إلى قلهات. وخلال هذه الفترة أقبل الفرس على تخريب العمران، وطمروا الأنهار/ الأفلاج التي كان سليمان بن داود قد بناها والتي بلغ عددها العشرة آلاف. وسارع الملك دارا لإرسال المزيد من الجند، لكنّ مالكاً ما تردد ولا تراجع، فدارت معركةٌ أخرى انتصر هو فيها أيضاً. وخلال الليل سارع الفرس الذين لم يؤسَروا أو يُقتلوا لمغادرة أرض المعركة وعُمان بالزوارق والسفنِ إلى إيران. وهكذا ملك مالك بن فهم البلاد بقوته وحكمته، وقدمت إلى البلاد بطونٌ أزديةٌ أخرى، كما وصل أوائلُ النزارية(سامة بن لؤي) إلى عُمان أيضاً.

ونستطيع التوقف عن متابعة القصة عند هذا الحدّ. والواضح أنّ أحداث قرونٍ طويلةٍ تركّبت وتجمعت من حول مالك بن فهم وهذا ليس مفاجئاً. فالذي يبدو أنّ العرب بدأوا الاستقرار بعُمان في القرن الميلادي الأول، كما أنّ الفرس عادوا لنشر سيطرتهم مع قيام الدولة الساسانية في القرن الثالث الميلادي. ومنذ تلك الحقبة تبدأ القصة التاريخية للوجود العربي، وللصراع مع الإمبراطورية الساسانية. فلنعُدْ الآن إلى قصة تدمير الفرس للأفلاج التي أنشأها سليمان بن داود، والتي بلغ عددُها العشرة آلاف.

البناء الأول للقنوات: ما كان هناك ملكٌ اسمه دارا بن دارا بن بهمن، بل هناك دارا الأول الأخميني، ودارا الثالث، وقد جُمع اسماهما معاً باعتبارهما أباً وابناً، وأُضيف إليهما اسم جدٍ ساساني. وتفترض القصة (والتاريخ أيضاً) أنّ الأخمينيين أعادوا سيطرتهم على عُمان، وقد ارتبط ذلك بشكلٍ ما بمسألة الأفلاج. ولسنا ندري يقيناً متى بدأ نظامُ الري يعتمد على الأفلاج. لكنْ هناك قصةٌ ذات دلالةٍ بارزة. إذ يذكر بوليبيوس Polybius أنه عند نشوب النزاع بين أنطيوخوس الكبير وأرتحششتا الثالث(212-205 ق.م) وأثناء تقدم أنطيوخوس في صحراء ميديا، اكتشف جنوده نظام القنوات الإيراني: "لقد قام هؤلاء الناس بجهدٍ عظيم ونفقاتٍ باهظة، بإنشاء نظامٍ للقنوات يمضي تحت الأرض لمسافاتٍ طويلةٍ جداً، ومن أزمنةٍ بعيدة؛ بحيث إنّ الذين يستخدمونه اليوم ما عادوا يدرون من أين تبدأ القناة، وما هي مصادر المياه المتدفقة فيها". وهكذا فقبل 2200سنة، كان نظامُ القنوات من القدَم بحيث لا تُعرف بداياته. ثم إنّ الفلج الذي بالخارجة والذي يعود في الأرجح للعهد الأخميني، كان ما يزال قيد الاستعمال إلى وقتٍ قريب. ولذلك فليس غريباً أن تكون بعض القنوات بعُمان يزيدُ عُمرُها على الألفي عام. والقنواتُ القديمة تلك، والتي جرى الاعتماد عليها عبر قرونٍ متطاولة، يسمّيها العُمانيون داودية، أي أنها تعَودُ للنبي سليمان بن داود!

ففي يومٍ من الأيام، بحسب العوتبي، وعندما كانت الجنُّ تنقلُ سليمان بن داود طائراً من

إصطخر إلى بيت المقدس، مالت به الريح لناحية عُمان، حيث شاهد حصناً قائماً بسَلوت، فبعث مَنْ يستعلمُ خبره، فما وجد فيه ساكناً. لكنّ نسْراً عجوزاً هناك أخبر أنه هو وآباؤه وأجداده ظلُّوا هناك لأجيالٍ وأجيال (ثمانمائة عام في ما يُقال)، وما رأوا إنسياً. هكذا نزل سليمان، وأمر شياطينه بحفر الأفلاج لري المكانِ، فحفروا ألفاً منها أو عشرة آلاف خلال عشرة أيام. وهذا هو أصل العشرة آلاف نهرٍ أو فلجٍ بعُمان(8)! هذه أسطورةٌ غريبةٌ أليس كذلك والراوي يُخرجها من عُهدته بالله أعلم!. بيد أنَّ الأمر يمكن أن يكون غير ذلك.

سليمان بن داود: يشير المؤلفون العُمانيون إلى سليمان بن داود باعتباره منشئ الأفلاج، وهم يعنون به النبي والشخصية القرآنية والتوراتية المذكورة في كتاب الملوك الأول من العهد القديم؛ بيد أن الارتباط الذي أقاموه معقد بعض الشيء(9). فليس هناك مصدرٌ معاصرٌ يشير إليه خارج التوراة، ولذلك كان بين الباحثين من شكك في وجوده. وقد كانت أهم أعماله بحسب التوراة إقامته للهيكل الأول(الذي دمر في العام 587ق.م). وتضعه بعض الدراسات الحديثة في حدود القرن العاشر ق.م. وبحسب الأسطورة العُمانية فإن سليمان كان عائداً من اصطخر إلى عاصمته القدس. والقصة الشهيرة الأخرى المتعلقة بسليمان تتصِل بملكة سبأ(سفر الملوك الأول، 10) التي سمعت بحكمته الكبيرة، فأتت إلى القدس حاملةً هدايا كثيرة لتُريَه نفسها، ومؤمِّلةً العودة بكل ما تريد، وربما أتت تلك القصة في سياق ما ورد في الجزء السابق من سفر الملوك(سفْر الملوك، ص26) الذي ورد فيه أن الملك سليمان صنع أسطولاً للبحر الأحمر مركزه عَدَن، وربما قام ببعض العمليات بالتعاون مع ملك صور الذي كان يتّجر مع بلاد أوفير. ولابد أن تكون تلك الفعاليات التجارية قد تمت في اليمن التي كانت لها علاقات وثيقة بالساحل الإفريقي المقابل. وتحفل القصة القرآنية الخاصة بسليمان بعناصر عجائبية، بيد أن نقطتها المركزية أن الملكة التي كانت تعبد الشمس اهتدت لعبادة الله على يد سليمان، وسليمان بحسب هذه الرؤية كان ملكاً عالمياً ومؤمناً حقيقياً (10). ولا يذكر القرآن شيئاً عن الهيكل لكنه يصفه بأنه بناءٌ كبير، وهذا العنصر بارز في كل القصص حول سليمان. وفي القرآن الكريم أيضاً عناصر موجودة في القصة العُمانية؛ وهي عناصر ربما حسبت من ضمن المتشابه في الكتاب، فقد كانت لسليمان علاقة بعالم الجن، ويفهم لغة الحيوانات والطيور، ويسيطر على الريح، وفوق ذلك فقد كان يأمر الشياطين والجن وهم سكان العالم المختفي الموازي لعالمنا. وكائنات ذلك العالم كانت تنفّذ تعليمات سليمان من بناءٍ وغوصٍ وصنع تماثيل.

ومن ضمن "القصص الشعبية" المتنامية امتداداً للقصة الأصلية، ما يمكن أن يكون مهماً للأقصوصة العُمانية. هناك مثلاً الرحلة اليومية بينِ الشام(تدمر) وأفغانستان على سجادة حريرية. وهناك القصة المشتركة بين التوراة والقصص الجنوبي العربي؛ وهي قصة وهب بن منبه(34-110هـ) الذي يذكر أن ملكة سبأ التي لا يُذكر اسمها في التوراة والقرآن اسمُها بلقيس، وسليمان هو الذي أتى إلى اليمن وتزوجها، وقد ولد لهما ابن هو رحبعام الذي حكم بعد والده، لكنه حكم سنة باليمن قبل أن يعود لعاصمة مُلك والده: مدينة تدمر.

والمعروف أن تدمر سحرت العرب أيضاً ولذلك لابد أن يكون سليمان هو الذي بناها

بمساعدة الجن، وهذه الفقرة عن سليمان باليمن تركت آثارها أيضاً في مكان آخر: ففي مأرب موطن السد هناك معبد قديم للآلهة وقد أطلقت عليه العامة اسم: مَحْرَم بلقيس! ويشير الزمخشري بصراحة إلى أن ملكة سبأ كانت تنتمي إلى حمير وسكنت بمأرب. أما في التاريخ الإثيوبي فاسم ملكة سبأ ماكيدا وابنها هو منليك الأول الذي منه تتحدر سلالة ملوك الحبشة، أما في التاريخ الأسطوري الفارسي فسليمان غير معروف، وهناك من يريد اعتباره هو نفسه شخصية جمشيد الغابرة، والذي كان يسيطر على "الديوز" مثلما كان سليمان يأمر الشياطين، وهكذا يكون(سليمان) هو الذي بنى برسيبوليس(تخت جمشيد، تخت سليمان، ملعب سليمان..الخ) وليس الأخمينيين، وكذلك فإن الاحتفاء بيوم النوروز يعود بحسب هذه النظرة إلى عهد سليمان حين استعاد مُلكه.

وقد ضم المؤرخون العرب برسيبوليس إلى إصطخر؛ فقد استخدمت في بناء المدينة الأحجار والمواد التي كانت في الأولى والتي دمَّرها الإسكندر الكبير. ويعود أصل الساسانيين إلى إصطخر، وقد اتخذها مؤسّس الأسرة أردشير بن بابك عاصمة له بعد أن قضى على آخر ملوك الأسرة الأرزقية، فتخلص بذلك من سيطرة البارتيين. وكما ذكر ياقوت الحموي، فإنّ هناك وصلاً أيضاً بين سليمان بن داود وإصطخر، وقد ظلت المدينة أهم حواضر إقليم فارس حتى العصور الإسلامية، وبذلك فقد كان سليمان مترحلاً- أو طائراً بين عاصمتي أهم دول العالم القديم -في الوعي الإسلامي- بين إصطخر والقدس، عندما مرَّ بسلوت ورآها مهجورةً لأكثر من ألف عام في بلادٍ سكانُها من البدو.

حضارة الألف الثالث في عُمان: لا أريد هنا الخوض باستفاضة في المظاهر الحضرية المبكّرة في عُمان، أود فقط التوقف عند نقطة التقاطع والازدهار في مرحلة حضارة "جمدتْ نصر" في الألفِ الثالث قبل الميلاد عندما صارت منطقة ماجان(عُمان وأجزاء من شرق إيران) مربوطةً بسلسلةٍ واسعةٍ من المراكز التجارية البحرية تمتد من بلاد ما بين النهرين وعلى طول الخليج إلى شرق إيران وهضاب جيحون. في الداخل كانت الواحات تستفيد في الشرب والري من السواقي البسيطة والآبار، وتستخدم التقنيات التي تعتمد على جمع المياه، أو توجيهها. أما الزراعة فقد انتشرت أشجار النخيل بكثافة إضافة لمحاصيل الحبوب الموسمية، وجاءت أيضاً الحيوانات المدجَّنة، بما في ذلك تلك التي صارت تستخدم في رفع المياه من الآبار. لكنْ في هذه المناطق الهامشية ما كنت القوة السياسية مركزية وبقيت ماجان مقسَّمة سياسياً إلى 32 مدينة مذكورة في النقوش البابلية.

وبالتوازي مع تطورات المجتمع الحضري تكون تدريجياً مجتمع بدوي يعتمد على الجمل المدجّن في مطالع الألف الثاني قبل الميلاد. وبدأ ذاك المجتمع يمارس تأثيره على حضارات ما بين النهرين، وعلى العلاقات بين مجتمع الواحات/ المراكز البحرية في دلمون(البحرين) ماجان(عُمان). وربما بسبب جفاف طارئ فإن مجمع المستقرات الهامشية هذا انهار تحت ضغوط البداوة المتوسعة لساكني الخيام(الذين سماهم الإغريق ساراكينوي/ ومن هنا أتى مفرد السارازانيين الوسيط). والبدو الساميون هؤلاء ربما كانوا هم أنفسهم الشعوب نصف الاسطورية مثل طسم وجديس بشرق الجزيرة العربية والذين

يخبرنا ياقوت أنهم بادوا إبان وصول الأزد إلى عُمان. والواقع أن سيطرة القبائل العربية مثل أزد مالك بن فهم أتت بعد ذلك بزمن طويل في الألف الأول قبل الميلاد، ومعها أتت بدونة الجزيرة ربما باستخدام تقنيات قتالية جديدة من جانب المقاتلين على الجمال، وعندما انهارت دول التخوم العربية ابان ذلك الوقت(11). وهكذا فإن عمان والهضبة الإيرانية شهدتا تراجعاً كبيراً للتجمعات الحضرية في الألف الثاني ق.م. وظل الأمر على هذا النحو حتى الربع الأخير من الألف الثاني في شمال بلاد فارس، وبداية الألف الأول في جنوب إيران، حيث عادت الحضارة الحضرية إلى الظهور وعادت تأثيراتها القوية على عُمان حوالي 800ق.م.(12)، ويكون علينا أن نلاحظ هنا أنه في حين استقر السكان في العصر الحديدي في نفس الأماكن السابقة تقريباً؛ فإنه منذ الألف الأول ظهرت مواقع حضرية جديدة ربما اعتماداً على نظام حفر القناة للري، وليس على نظام البئر/الساقية، كما كان عليه الأمر من قبل.

فحص قصة سليمان بن داود: كان سليمان إذن طائراً من إصطخر عاصمة الحضارات الإيرانية القديمة إلى عاصمته هو، في القطب الآخر، وفجأة لاحظ قلعة سلوت المهجورة. بدت عُمان وقتها باعتبارها مكاناً ذا سحر خاص، كأنما هي فيلم عن حياة غير حَضَرية: سكانها كما تقول الأقصوصة كلهم من البدو: ساراكينوي! ولذلك فقد توقف سليمان هناك وأمر شياطينه بحفر الأفلاج. أو كما يقول بوليبيوس، بطريقة شاعرية وفي القرن الثالث قبل الميلاد حين كانت الأفلاج قد صارت قديمة فعلاً وغائرة في التاريخ: "لقد ضمنوا الحصول على الفوائد من الأرض المسقية لخمسة أجيال، مقابل المجيء بالماء العذب للسكان" والمقصود بضمير الغائب(ضمنوا) الأخمينيين. ولا شك أن تقنية القناة كانت قد صارت مستعملة وبتوسع حوالي منتصف الألف الأول قبل الميلاد. وقد تكون البدايات تمثلت في حفر بعض القنوات في نهايات الوديان، كما هو الشأن في القنوات الحديثة التي أنشئت في الشرقية مثلاً، بيد أن النظام نفسه بجانبيه المالي والتقني يحتاج إلى قوة منظمة وقادرة ما كانت تتوافر وقتها إلا في الأخمينيين، لكن علينا أن نلاحظ أن حفر القنوات وتنظيمها ليس عملاً يحتاج إلى أعداد كبيرة من العمال مثل سد مأرب. على العكس من ذلك فإن شق القسم العلوي من القناة يتطلب مهارة ووقتاً طويلاً، وتقوم به مجموعة صغيرة من المختصين: المُقنّون. وصحيحٌ أن هؤلاء كانوا في الغالب من عمال السخرة(شأن الحوز بمراكش) لكنهم كانوا في الغالب مكلَّفين بحفر موضع بدء النفق وتحديده، وإنشاء الأجزاء المغطَّاة، وإجراء الماء، وتنظيم الحقل(13). سليمان وحده يستطيع بناء عشرة آلاف فلج في عشرة أيام كما تقول القصة، لكن الواقع أن نظام القنوات هذا يحتاج إلى وقت طويل، وجهد هائل، والصبر على أعمال غير مبهجة، وقد كانت سلوت هي المكان الذي نزل فيه سليمان بن داود، كما كانت المكان الذي قاتل فيه مالك بن فهم وعربه دارا بن دارا عندما رفض رعاياه هناك السماح لعرب مالك بالإقامة في الأرض التي فيها عشرة آلاف فلج.

في فبراير عام 1973م ذهبت إلى سلوت للبحث عن أي إشارة تهدي إلى علّة كون ذاك

المكان هو المسرح للقصتين: قصة سليمان بن داود، وقصة مالك بن فهم. وقد كلمت شيخ المنطقة في بلدة بسية القريبة، وقد قادني الرجل مباشرة إلى تلة معتبرة قال إنها كانت في الأصل قلعة الفرس التي تحصنوا فيها، ثم أشار إلى ركام آخر في الجهة العليا من الناحية وقال: إنه قبر مالك بن فهم وقبور أصحابه(والركام في الواقع ربما كان قبوراً فعلاً من الألف الثالث قبل الميلاد). وقد عمدت للاتصال بفريق أثري من هارفرد في تبة يحيى والذي كان يقوم بمسح أولي للمواقع الأثرية في عُمان – وقدتهم إلى ذلك المكان وكانوا قد مروا به، وقد أفضى مسحهم السريع لرُكامات سلوت (والتي سموها BB/15) إلى تلاقي البحث الأثري مع الأسطورة فعلاً. فالخزف المكتشف في المكان يشبه ذاك المكتشف في جنوب إيران، والمستقر الحضري يعود للقرن الثامن/السابع ق.م، ويستمر إلى نهاية الألف الأول، ثم يظهر الاستقرار في القلعة من جديد في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين(14). لقد فشلتُ كما فشل شيخ بسية في لفت الانتباه إلى أهمية موقع سلوت، لكنني علمتُ أن فريقاً إيطالياً يعتزم العودة للتنقيب فيه.

وقبل أن أعرض استنتاجاتي أريد توجيه النظر إلى عنصرين آخرين في التقاليد المحلية حول سلوت، العنصر الأول: أنّ أقدم المستقرات الحضرية في الناحية هو موقع جرنان، الاسم القديم لإزكي(المزدهرة) قبل الإسلام، ويأتي بعده من حيث القدم موقع نزوى(15)، وكلا الموقعين في الجوف، وكلاهما كانا يتمتعان بأهمية أكبر في عصور ما قبل الإسلام. قبل الحرب الأهلية التي أنهت الإمامة الأولى، يقال إنه كانت لفلج مالك بسلوت مائة وعشرون عاضداً، وما بقي منها غير مصدرين اثنين، وبعض الأفلاج (القنوات) الصغيرة، ففي عهد الإمام غسان بن عبدالله (192-207هـ/808-823م) كانت نزوى "مزدهرة جداً". كما كان ماؤها من الغزارة بحيث إن فلج ضوت كان يصل إلى أرض دريس(16). أما في ناحية بهلاء حيث نعلم أن لقلعتها جذوراً تعود لما قبل الإسلام(17). فقد كانت هناك أراضٍ مهجورة لعدة قرون بعد الحرب الأهلية ومن ضمنها أجرد وسيفم وجمح(جبرين) وسلوت ذاتها. وقد أظهر مسح هارفرد السريع موقعاً أثرياً آخر(BB/4) من الألف الأول قرب بهلاء، كما وجدت دلائل على مستقرات من الحقبة نفسها في حفيت وواحة البُريمي وساحل دبا ومجاز(SH/11) جنوب صحار وفي دما، وذكر Frifelt(18) ، مجموعة كبيرة من القبور ربما عادت للعصر الحديدي في وادي سوق/جزي وحول عبري والسبيلي. وفي الناحية نفسها(التي كانت تُدعى السرّ) وجدت بقايا معدنية كبيرة. إن هذا القبور تشبه في نمطها تلك الموجودة في زكيت(إزكي).

كل هذه الإشارات والدلائل تؤكد وجود تطور كبير في نظام القناة على السفوح الغربية للجبال مع تركز كثيف في طُعَم(الاسم القديم لناحية البريمي) والسرّ، والجوف وبالذات في وادي بهلاء، وفي الوديان التي تقع فيها نزوى وإزكي، ويبدو أن حدود التحضر والاستقرار كانت تقع عند الشرقية، حيث يمتزج سقوط الأمطار بتغير درجات الحرارة مما يجعل استمرار المياه غير مؤكّد. وأنا أرى أنه ضمن هذا النظام؛ فإن سلوت صارت مستقراً رئيسياً، في الجوف على الأقل. ومن هنا يأتي ارتباطها بحكاية سليمان بن داود.

وهناك خصيصة من الخصائص الأولى للأفلاج، هي أنها كانت تقع في أسافل الجبال. بينما في النواحي الشرقية كانت الأفلاج ضمن الوديان. وقد يرجع ذلك للتقنيات المختلفة بسبب اختلاف تكوينات الأرض وجغرافيتها. فبسبب اختلاف طبائع المكان أيضاً ظهرت قنوات فوق سطح الأرض أو مكشوفة في جلفار وساحل الباطنة، وربما عرفت تلك التقنيات من الرومان حيث استعبد كسرى الساساني جيش الإمبراطور فاليريان بعد هزيمته واستخدمه لتطوير إمكانيات خوزستان.

هناك دلائل قوية إذن ناقشتها بالتفصيل في مكان آخر، أن التوسع الكبير في المستقرات الحضرية بالباطنة(ومعه تطور صحار) مرتبط بإمبراطورية الساسانيين الذين جمعوا ساحل عُمان مع الشحر في الجنوب لتتكون مراكز بحرية مهمة سماها العرب: أرض الهند. أما خلفية الباطنة الداخلية فقد كانت الرستاق، مع أن الناحية المرتبطة بالإقليم الفارسي(المزون) ضمّت الجوف أيضاً. خلال النصف الأول من الألف الأول الميلادي، وصل مالك بن فهم إلى سَلوت ويبدو أن أجزاء من عُمان وقتها كانت واقعة تحت سيطرة اللخميين بالحيرة، لكن في حين أتت الهجرات الأولى من الجنوب تواردت هجرات كبرى من وسط الجزيرة والبحرين(الكبرى) من خلال طُعَم(البُريمي). وربما في عهد كسرى أنوشروان(531-578م) جرى التوصل إلى تسوية حول حدود استقلالية القبائل بعُمان، وطبيعة العلاقة بالسلطة الساسانية. وبنتيجة ذلك ظهرت أسرتا الجلندى الأولى من بطن المعولي من أزدشنوءة في الشمال والوسط، أما في جنوب شرق عُمان وبعض ساحل كرمان فسادت الأسرة الأخرى من بني سليمة(أزد مالك بن فهم: الجلندى بن كركر). وهذه النواحي المستقلة تضمنت أيضاً طُعَم في الداخل.

محاولاتٌ لتحقيب سَلوت: أريد في النهاية أن أقول شيئاً عن إحياء سَلوت في القرنين الثالث عشر والرابع للميلاد، والذي تحدث عنه الأثريون. يبدو أن المكان كان ما يزال يتمتع ببعض الأهمية في زمن الحرب الأهلية، بدليل أنه يُذكَرُ مقترناً بمعركة الروضة(على مقربة من تنوف)(19)، حوالي العام 277هـ/890م). وقد جرى الاستيلاء على مناطق واسعة في ناحية بهلاء ثم هجرت تلك الأماكن ومنها سلوت وسيفم وجُمَح. ويذكر محمد بن إبراهيم الكندي(508هـ/1115م) في "بيان الشرع" تلك المواطن باعتبارها: "بلداناً مغصوبة". ويعني ذلك أنه ممنوع على المسلم الورع الأكل أو البيع أو الشراء من منتوجاتها. وبعد بعض الوقت، يبدو أنّ تلك النواحي هجرت تماماً، ربما بسبب الفوضى زمن النباهنة، وإهمال صيانة الأفلاج، رغم وجود محاولات للإحياء، تشبه تلك التي شهدتُها في زيارتي عام 1973م.

وتُسمَّى الأراضي اليباب هذه: رَمّ، وهي تبقى لمالكيها قبل الاغتصاب، ويَرثُها عنهم أولادهم، رغم أنها ظلّت غير مستعملة. وهي ليست أرضاً مواتاً، لأن من أحكامها في الفقه الإسلامي إمكان تغير المستعمل أو المستأجر، بينما الأمر في الأرض المغصوبة على غير ذلك. بيد أن المشكلة تظهر إذا لم يتقدم للتملك أو الادعاء أحد، ولم تتمكن السلطات من تتبّع أصول الملكية وقد حدثت أولى المحاولات لفضّ هذا المشكل عندما كانت الإمامة قائمة

مبدئياً في نزوى، وقد مدّت سيطرتها على الجوف في القرن الخامس عشر. وفي ذلك الحين برزت عدة أُسَر من بهلا بما في ذلك أعقاب الإمام الخروصي الصلت بن مالك(حيث شكل عزله عام 272هـ/886م بداية للحرب الأهلية). وقد أتى الحكم الأول في الأرض المغصوبة المجهولة المالك من صالح بن وضاح المَنْحي (مات عام 1471م) قال الفقيه صالح: رغم أن الأرض موضع السؤال مغصوبة؛ لكنّ أحداً لا يعرفُ مَنْ هم مُلاّكها أو سُلالتهم، ولذلك توضع تلك الأرض في تصرف الإمام، الذي يستطيع السماح للفقراء باستعمالها لحين انتهاء زمن فقرهم. وما لبث فقيهٌ آخرُ هو أحمد بن مفرّج(من أسرةٍ بهلويةٍ منافسة من بني الصلت) أن نقض هذا الحكم ذاهباً إلى أن أحداً لا يستطيع استعمال تلك الأرض بحجة أنها مالٌ حَشْري. وهذا الرأي إيجابيتُهُ أنه لا يسمحُ بتاتاً باستعمال الأرض المغصوبة لعدم تشجيع أحد على الاغتصاب والاستيلاء. لكنْ من جهةٍ ثانيةٍ تبقى تلك الأرض مواتاً حتى يظهر مُدَّعون للتملك يستطيعون إثبات ذلك. ثم عاد فقهاء من نزوى من أسرة ابن مدّاد فاعتبروا أنّ تلك الأراضي من أملاك "الغوائب" وهكذا تُوضَعُ في إدارة الإمام شأنها في ذلك شأن من انقرض ملاّكها أو اعتُبروا موتى، وما دام الأمر كذلك فيمكن للفقراء بإذن الإمام أن يستعملوها وكذلك الأيتام، أو تعتبر من أراضي "الصوافي" (ملك الدولة الإسلامية) ويمكن استعمالها للصالح العامّ (عزّ الدولة) وفي كل الأحوال لا يمكنُ تجاهُلُ إمكان ظهور الملاّك الأصليين. وقد ذكر أحمد بن مداد من أسباب ذلك، غموض المسألة، وجواز وجود أحد أعقاب المالكين ضمن المستعملين للأراضي. وتوقف ابن مداد عند منطقة أجرد، فلم يُصدر فيها حُكماً لأنه لم يجد في الآثار ما يدل على أصل وضعها. واحتفظ ابن مدّاد برأي الفقيه صالح الأصلي والقائل: بأنه ما دام المُلاّك الأصليون معروفين وإن يكونوا غير موجودين الآن والأرض مهجورة؛ فلا يمكن اعتبار الأرض مالاً حشرياً – ويمكن إعطاؤها للفقراء لزراعتها والإفادة منها، ويفضل أن يكونوا من أبناء القبيلة في تلك الناحية.

وأياً يكن الأمر؛ فإنّ الحقوق الأصلية لا يمكن ضمانُها؛ ولذلك ما كانت هناك مشجِّعات على استثمارات في الأرض في المدى الطويل، من مثل ترميم الأفلاج. وجرى استعمالُ الأرض استعمالاتٍ خفيفة. وفي عهودِ اليعاربة؛ فإن أجزاء واسعة من نظام الري بما في ذلك ساحل الباطنة كانت معرَّضة للإغارة والتخريب من البحر، ولذلك هُجرت أو أُهملت(20). ودخلت بعض الإصلاحات على هذه الفوضى مع مَقْدم الإمام ناصر بن مرشد اليعربي(1624-1640م). فقد ذكر الفقيه الكبير المعاصر له خميس بن سعيد الشقْصي صاحب "منهاج الطالبين" أن الأرض المتروكة تقع تحت مسؤولية الإمامة، والذين يزرعونها يدفعون الزكاة. وأضاف مسعود بن رمضان أنه في الأراضي الحدودية بين المالكين، حيث لا وضوح، فإن موظفي الإمام يستطيعون التصرف، بما يعتبرونه الأولى. وقد حسّنت هذه الفتاوى من الوضع، لأنها أخرجت الأرض من دائرة الأموال الحشرية؛ وإن لم تسمح بإنشاء حقوقٍ أصلية، وأتى الحلُّ النهائيُّ أخيراً على يد محمد بن عبدالله بن جمعه بن عُبيدان من صَمَد نزوى، والذي كان قاضي القضاة في عهد بلعرب بن

سلطان اليعربي(1680-1692م وإن يكن أخوه سيف بن سلطان استولى على السلطنة قبل وفاته). قال ابن عُبيدان إنه في حالة الفلج المهجور الذي لا يمكن إثبات أنه كان بإدارة أحد من المسلمين أو يملكه أحدهم فالحل اعتباره أرضِ موات، ويعني هذا أنه مع عدم وجود دلائل خطية فإن الحقوق الأهلية يمكن أن يحصُل عليها مستعملٌ جديد، وهكذا تمكّن بلعرب من أخذ تلك الأرض حول جُمَح وبنى عليها قصره/ القلعة في جبرين، حيث قضى سنواته الأخيرة. أما أخوه (-1711م) فقد كسب لقب "قيد الأرض" ويقال إنه حصّل الحقوق الأهليةٍ لثلث أرض عُمان، وجدَّد فيها أفلاجاً، واستورد محاصيل جديدة، وطور أراضي شاسعة بالباطنة.

وهكذا فإن الدلائل الأثرية على عودة الاستقرار لسلوت في القرن الخامس عشر ربما كان سببها ما حدث آنذاك من استغلالٍ للأرض وإصلاحٍ للأفلاج كما سبق ذكره. بيد أن الخصومات بين منح ونزوى وبهلا قادت لضرب الإمامة، وتطورت النزاعات على بهلا إلى أن صارت فوضى مطلقة. وفي القرن السادس عشر كما هو معروف ما كان هناك أحد يمارس سلطة فعلية إلاّ النباهنة وفي بعض المناطق فقط. وقد سقطت السلطة أخيراً في أيدي أُسَرٍ أجنبية. ولذلك فربما شهدت تلك العقود تراجُعاً في السُكنى والزراعة بالجوف والهجران النهائي لسَلوت. وعادت السلطة المركزية للفعالية في عهد اليعاربة، الذين سارعوا للتطوير والتنظيم. لكنّ سلوت ما كانت في اهتمامهم، وجرى تجاهل اسمها وموقعها تماماً حتى من جانب العُمانيين أنفسهم. وهذا ما لا ينبغي نسيانه.

****

الهوامش:

*) كاتب وأكاديمي بريطاني مختص بالدراسات العُمانية.

1- يستند قسمٌ كبيرٌ من هذه المقالة إلى موادّ سبق لي نشرها في كتابين ومقالةٍ لي، هي:

- Water and Tribal Setelment in South-East Arabia (1977); وبخاصةٍ الملحق الخاص بفقه الأراضي عند الإباضية

- The Imamate Tradition of Oman (1987) والفصل الأول من:

"The Origins of the Aflaj of Oman" in: Oman Studies VI, 177-194.

2- درسْتُ مسألة كتابة الأنساب من جانب العوتبي، وتواريخها الممكنة في:

"Kilwa Sira"; in Irvine, A. K. et al (eds) Miscellany of Middle Eastern Articles in Memoriam Thomas Muir Johnstone 1924-1983 Longman 1989.

3 - هـذه المعلومـات عـن ترميمـات السـدّ وتـاريخه مـأخوذة عـن تقرير المسـتشارين الموضوع من أجل بنـاء سدٍ جديـد. ويتضـمن التقرير ملحقاً كتبه Beeston عن النقوش السبئية حول انهدامات السدّ وترميماته.

4- Potts, D.T. "From Qade to Mazun; Four notes on be to

5- انظر دراسـتي: "A Sketch of the Historical Geography of the Trucial Oman…", in: Geographical Journal cxxx, 1964. 337-349.

6 - بروفسور بيستون قـال أيضـا: إنه كـانت لـديه شكوك في هـل النصـوص المشـابهة الموجـودة في الحسـا هي أيضـاً عربيـةٌ جنوبيـة. وقـد ذهب Jamme أيضـاً إلى أنّ لتلك النصوص خصائصها المحلية.

7 - هـذه قطعـةٌ أخرى مـن الأسـطورة والـتي تريـد ربـط المهرة على السـاحل الجنـوبي بالتحدُّر النَسبي العربي المرتبـط بحمير (مهرة بن حيـدان بن عمرو بن الحـاف بن قضـاعة بن مالـك بن حمير)، كمـا تشـير الإشـارة إلى التحـالف الخـاصّ بين مهرة وقبائل مالك بن فهم.

8- هذا النص في قراءة عبدالله بن حميد السالمي: تحفة الأعيان (القاهرة 1380/1961)

9 - هنـاك تقليدٌ محليٌّ آخر يـذكر وادي قريـات مكانـاً لنزول سـليمان (محمـد بن عبـدِالله السالمي: نهضة الأعيان- نشـرة القاهرة، ص59). وأرى أنّ ذلك يعود للشـكل الفريد للفلَج هناك، والذي ربما أُنش أيام اليعاربة أو النباهنة.

10- هنــاك عدة قصــص في Le monde de La bible تتصــل بـه، كمـا أن تلك الشخصيات والأماكن لها مواد في دائرة المعارف الإسلامية (مثل سليمان بن داود وبلقيس وجمشيد وإصطخر).

11 – ما يجدر ذكره أنه في قصة صراع مالك بن فهم مع الفرس كان العرب يستخدمون الخيول.

12 – يبــدو ذلــك في دراســة Lamberg-Karlovsky(1973) ودراسـة Dyson 1973)) أيضـا. ً وهاتان الدراستان تعرضان نتائج حفريات في الهضبة الإيرانية.

13 – لأن القناة تجلب الماء إلى (السيوح)، فإن تلك الحقول لابـد أن تنقى من الصخور والحصى، ثم لا بد أن تكون التربة صالحة وخصبة.

14 – انظر دراسة همفريز (1974).

15 – محمد السالمي: نهضة، ص181.

16 – عبدالله السالمي: تحفة، 1/125.

17 – يذكر مايلز أن القلعة ذات أصول بارتية.

18 – دراسة فريوز عام 1975. 191، دراسة (1986م).

19 – السالمي: التحفة 1/232.

20 – السالمي: التحفة 1/165.